مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-41X
مجلد: 08 عدد: 01 السنة: 2022 E-ISSN:2588-2325

إشكاليات صون التّراث الثّقافي اللاّمادي المتّصل بالنّخلة بالبلاد التّونسية

Problems of safeguarding the intangible cultural heritage linked to the palm tree, after the commitments of the Tunisian State

حمد غضباني*، وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية، تونس، hamadpabs@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2022/03/05 تاريخ القبول: 2022/05/25 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

تحاول هذه الورقة تسليط الضّوء على إشكالات صون التّراث الثّقافي اللاّمادي المتّصل بالنّخلة في تونس، في ضوء تعهّدات الدّولة التّونسية المضمّنة في ملفّيْ "النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات" و"الصّيد بالشّرفية بجزر قرقنة" المسجّليْن على القائمة التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية. وكذلك من خلال التّحدّيات الوجودية التي تواجه منظوماتها الواحية، وما يمكن أن يترتّب عليها من مخاطر. كما يقدّم المقال محاولة لرسم الملامح العامّة لصون التّراث اللاّمادي المتمحور حول النّخلة بالبلاد التونسية.

الكلمات المفتاحية: النّخلة، صون التّراث الثّقافي اللاّمادي، القائمة التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية، البلاد التّونسية.

Abstract:

This article attempts to shed light on the problems of safeguarding the intangible cultural heritage linked to the palm tree, after the commitments of the Tunisian State included in the two folders: "The palm tree: knowledge, know-how, traditions and practices" and "Sharfia fishing in Kerkennah Islands" which are inscribed on the culturally representative list of intangible women on the cultural list. Existentialism in the face of its

* المؤلف المرسل

oases. It also presents an attempt to draw the general characteristics of the preservation of intangible heritage centered around the palm tree. As well as through the existential challenges facing its oasis systems. It also presents a general policy to save the intangible heritage related with the palm tree.

Keywords: palm, safeguard the intangible cultural heritage, Representative List of the Intangible Cultural Heritage of Humanity, Tunisia.

مقدمة:

تفيد الشّواهد الأثرية والتاريخية أنّ حضور النّخلة في المجال المعروف حاليّا بالبلاد التّونسية يعود إلى فترات ضاربة في القدم. حيث تمّ العثور على الكثير من الرّسومات الخاصّة بالنّخلة، سواء بطريقة تجريدية أو واقعية، على محامل مختلفة، وتعود إلى مجمل الفترات التّاريخية التي مرّت بهذه المنطقة؛ منذ العهد البوني وطيلة الفترتين الرّومانية والبيزنطية. هذا إلى جانب العديد من النّصوص التّاريخية الواردة في المصادر الأدبية التي ترجع إلى الفترة الرّومانية وإلى العهود الإسلامية، والتي جاءت على ذكر توزّع النّخيل على أجزاء مهمّة من الجغرافيا التّونسية الحالية، وخاصّة منها الواحات الواقعة في جنوب البلاد، نظرا لمكانتها آنذاك في طرق التّجارة عبر الصحراء. وتمتدّ فيها الواحات في الوقت الحاضر على مساحة تقدّر بحوالي 43700 هكتار، تشتمل على 267 واحة (Société Consulting en Développement Communautaire et en Gestion d'Entreprises (CDCGE), 2017, p. 5).

ويحوز التّراث الثّقافي اللاّمادي المتّصل بالنّخلة على تنوّع كبير، ويتوزّع بين مختلف المحاور التي يتجلّى من خلالها هذا التّراث، كما ضبطتها اتّفاقية اليونسكو لسنة 2003. فنجد فيه ما يُصنَّف في خانة "التّقاليد الشّفهية" و"الممارسات الاجتماعيّة والطّقوس والاحتفالات" و"الثّقافة الغذائية التّقليدية" و"الألعاب الشّعبيّة التّراثيّة" و"المعارف والممارسات المتّصلة بالطّبيعة والكون" و"المهارات المرتبطة بالحِرف التّقليديّة ". وهذا يدلّ على مركزية النّخلة في حياة الإنسان في بيئاتها المختلفة، صحراوية كانت، أو جبلية، أو ساحلية، أو جزرية. ورغم أنّ لبعض منتجات النّخلة موقع مهمّ في تقاليد الإنسان التّونسي بصفة عامّة، فإنّ النّخلة تمثّل لدى سكّان الواحات المحور الذي تدور حوله مختلف جوانب الحياة. وتقترح هذه الورقة محاولة النّظر في مدى تنفيذ تدابير صون التّراث الثّقافي المرتبط بالنّخلة من خلال ملفّي "النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات" و"الصيد بالشّرفية بجزر قرقنة" المسجّلَيْن على القائمة التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية.

1. ضبط المفاهيم

1.1. التّراث الثّقافي اللاّمادّي:

يُعدّ هذا المفهوم من أحدث المفاهيم المتّصلة بتصنيف التّراث، ويقصد بعبارة "التّراث الثّقافي اللاّمادي" الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات – وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية – التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزء من تراثهم الثقافي. وهو يتميّز بأنّه متوارث جيلا عن جيل، وحيّ، بحيث تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتّفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها. ويحتاج التّراث الثّقافي اللاّمادي إلى الصّون لأنّه يمنح الإنسان الإحساس بالهوية والانتماء ويربط بين ماضيه ومستقبله من خلال الحاضر، ويساعد على الحوار بين الثّقافات ويشجّع على الاحترام المتبادل لأساليب الآخرين في الحياة، ويعزّز التّماسك الاجتماعي. ويمكن أن يكون له مردود اقتصادي ونفعي – مع التّنبيه بألاّ تحلّ "القيمة السوقية" للتّراث محلّ "قيمته الثقافية" - ويساعد على إرساء تنمية مستدامة.

2.1. الصّون وأهمّ تدابيره:

تفرض المصادقة على اتفاقية اليونسكو لسنة 2003 من الدول الأعضاء القيام بالتّدابير اللاّزمة لصون التّراث الثّقافي اللاّمادي الموجود على أراضيها، من ذلك تحديده وجرده/حصره والتّعريف به بمشاركة الجماعات والمجموعات والمنظمات غير الحكومية ذات الصّلة، وإلى غير ذلك من التّدابير الواردة في المادة 13 و14 و15 من الاتفاقية. وتقترح الاتفاقية مفهوم "الصّون" (sauvegarde) للتّراث الثّقافي اللاّمادي، بدل "الحفظ" (conservation) و"الحماية" (protection) أو غيرها من المفاهيم المعتمدة وفق الصّيغ المتداولة بالنّسبة للتّراث المادي، وذلك خشية من أن يؤدّي ذلك إلى تحنيطه وتثبيته في حالة معيّنة، وهو ما يُفقِده الحياة شيئا فشيئا ويتخلّف عن حركة المجتمع فيفقد وظيفته ويتلاشى. إذن مفهوم الصّون يقتضي "ضمان استمرار إعادة خلقه ونقله" (منظّمة الأمم المتّحدة للتّربية والعلم والثّقافة، (بلا تاريخ)، ص 3)، أي نقل المعارف والمهارات والمعاني والممارسات من جيل إلى جيل والحرص على تجديدها لكي تُواكب حركة المجتمع وسُنن التّطوّر التي يفرضها التّاريخ. وتُعرِّف الاتفاقية مفهوم الصّون ب"التّدابير الرّامية إلى ضمان استدامة التّراث الثّقافي اللاّمادي، بما في ذلك تحديد هذا التّراث وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه (preservation) وحمايته (protection) وتعزيزه (promotion) وإبرازه (mise en valeur) ونقله (transmission)، لا سيّما عن طريق التّعليم النّظامي وغير النّظامي وإحياء مختلف جوانب هذا التّراث".

2. التّراث اللاّمادي المتّصل بالنّخلة من خلال ملفّيْ "النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات" و"الصّيد بالشّرفية بجزر قرقنة" المسجليْن على القائمة التّمثيلية للتّراث اللاّمادي للإنسانية

1.2. النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات:

جاء في بطاقة الجرد الخاصّة بعنصر "النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات" - والحاملة لرقم 6/033 ضمن بطاقات الجرد الوطني للتّراث الثّقافي اللاّمادي- مجموعة من الإشكالات في باب "مدى قابلية العنصر للاستمرار: العراقيل والتّهديدات". ورغم أهمية الإجراءات الرّسمية الرّامية إلى حماية النّخلة، والواردة ضمن محور "برامج التّثمين وإجراءات الصّون"، باعتبار وجودها هو شرط لا مندوحة عنه لبقاء ما يرتبط بها من معارف ومهارات وتقاليد وممارسات، إلاّ أنّها تظلّ قاصرة عن تلبية الأسباب الضّرورية لصون العنصر. وذلك راجع لعدّة أسباب، بعضها لـ"استثناء بعض الجهات، على غرار جزيرتيْ قرقنة وجربة من الإجراءات والامتيازات الموجّهة للنّخلة"، وكذلك لنقص التّنسيق بين مراكز البحث والمؤسّسات الجامعية المختصة في الفلاحة من جهة، ومصالح وزارة الفلاحة المعنية بالإرشاد الفلاحي من جهة أخرى، ما يجعل الدراسات والاكتشافات المهتمّة بتطوير أوضاع الواحات لا تجد طريقها إلى التنفيذ. وبعضها الآخر يعود لعدم إيلاء المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات المرتبطة بالنّخلة ما تستحق من العناية، والحال أنّها هي جوهر التّراث الثّقافي اللاّمادي بالنّسبة لهذا العنصر. حيث لا يحتوي محور "برامج التّثمين وإجراءات الصّون"، ضمن بطاقة الجرد المذكورة آنفا، على التّدابير الكافية الخاصّة بهذا البُعد. وقد جاء في محور "تدابير الصّون المقترحة" ضمن ملف "النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات" المسجّل على القائمة التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية، أنّه ما إن يتم تسجيل هذا العنصر على هذه القائمة حتى تقوم الدول المشتركة فيه بتبنّي مجموعة من التدابير، بمشاركة المجموعات والجماعات والأفراد، وفي إطار احترام اتفاقية اليونسكو لصون التّراث الثّقافي اللاّمادي، من أجل ضمان حماية نخلة التّمر (UNESCO, 2019, pp. 17-18). ومن بين تلك التدابير:

- إنشاء وتطوير قواعد بيانات لجرد العادات والتّقاليد والمعارف والممارسات والمؤلّفات الفنّية ومنتجات الصّناعات الحرفية المرتبطة بنخلة التّمر، لجعلها مصدر معلومات للباحثين والمبدعين وكل مختصّ في هذا العنصر.

- إدماج التّراث المرتبط بنخلة التّمر في مختلف مستويات برامج التّعليم وتكوين المدرّسين من أجل ضمان نقله للتّلاميذ بما ينسجم مع المضمون التّربوي.

- التّشجيع على بعث المنظّمات غير الحكومية المهتمّة بالتّراث المتّصل بنخلة التّمر ودعم مؤهّلاتهم لصون هذا العنصر والتّراث الثّقافي اللاّمادي في مجمله.

- تطوير المهرجانات والمعارض الوطنية والإقليمية والدّولية من أجل تقديم نخلة التّمر والنّهوض بمنتجاتها والإحاطة بالمجموعات والجماعات المعنية بذلك.

- إنشاء وتطوير متاحف محلية ووطنية بغاية صون نخلة التّمر.

- تشجيع الشّباب على ممارسة الأنشطة المرتبطة بنخلة التّمر لمجابهة التّراجع السّريع لهذا القطاع بسبب تطوّر أنماط العيش المخالفة للنّمط التّقليدي.

- تبادل المعارف بين الدّول المتعهّدة بشأن الجوانب الثّقافية لنخلة التّمر.

- تعمل الدول المتعهّدة على محاولة إنشاء موسوعة للتّراث المرتبط بنخلة التّمر انطلاقا من المعطيات الميدانية.

وفي ذات الإطار تعهّدت الدّولة التّونسية بدعم الجمعيات المائية لمساعدة فلاّحي الواحات على حسن التّصرّف في الموارد المائية المتاحة، وتعزيز الرّقابة على انتقال شتلات نخلة التّمر وضمان جودة الإنتاج. كما تعهّدت بتوفير الأطر المالية والقانونية والمؤسّساتية اللاّزمة لتطبيق تدابير صون التّراث الثّقافي اللاّمادي المرتبط بنخلة التّمر. وبمقتضى الملف المقدّم إلى اليونسكو، يُكلَّف الدّيوان الوطني للصّناعات التّقليدية بتفعيل تدابير الصّون من خلال التّواصل الدّائم مع الحرفيين وتوفير المعارض والمساعدات المناسبة. إلاّ أنّ الواقع يظهر لنا أنّ الدولة لم تتقيّد بأغلب هذه الالتزامات، وظلّت إلى حدود هذا التّاريخ حبرا على ورق.

وبالنّظر إلى ما تعانيه الواحات من إشكالات بسبب التّحوّلات السوسيو-اقتصادية والبيئية النّاجمة عن التّغيّرات المناخية، جاءت الدّراسة المخصّصة للواحات التّقليدية التّونسية، والمنجزة في إطار مشروع "التّصرّف المستدام للنُّظُم الإيكولوجية الواحية في تونس" الذي تشرف عليه وزارة الشؤون المحلية والبيئة، لكي تقترح حلول لتأهيل الواحات حتى تتكيّف مع الأوضاع الجديدة (Société Consulting en Développement Communautaire et en Gestion d'Entreprises (CDCGE) et Ministère des Affaires Locales et de l'environnement (Tunisie), 2017, p. 5). ومن بين المقترحات التي قدّمتها هذه الدّراسة، إنشاء "ديوان تنمية الواحات"، لكي يُعهد إليه بمهمّة تأهيل الواحات وتنفيذ برنامج وطني لتنمية النّظام الإيكولوجي الواحي (Ibid., p. 144) ، إلاّ أن هذا المقترح لم يتحقّق بعد. كذلك لم تتوصّل الدولة إلى تنفيذ أغلب التّوصيات الواردة ضمن "إستراتيجية التّنمية المستدامة للواحات في

تونس"، والتي جاءت على العديد من الإشكالات المتعلّقة بالواحات ورسمت الخطوط العامة للتّدخّل، على المستوى الاستراتيجي والبيئي والاجتماعي والمؤسّسي والفنّي (Ministère de l'environnement et de développement durable, 2015, 148 p.).

وننوّه أيضا إلى غياب أيّة خطّة، في الوقت الحاضر، لتوثيق جوانب التّراث الثّقافي اللاّمادي المرتبط بالنّخلة من طرف مصالح المعهد الوطني للتّراث أو غيره من المؤسّسات الرّاجعة بالنّظر لوزارة الشّؤون الثّقافية. ومن خلال المعاينات الميدانية، يتبيّن لنا أنّ الأنشطة الحرفية التي ترتكز على مشتقّات النّخلة في تراجع كبير، وخاصة منها نجارة خشب النّخيل وصناعة الأثاث وغيره من المستلزمات التي تعتمد على نصال الجريد. كذلك الأمر بالنسبة للمنتجات الحرفية المصنوعة من السّعف (مثل القفاف والسّلال والمراوح ومظلاّت الرّأس وسجّادات الصلاة...) أو من العراجين (مثل المكانس والغرابيل) وغير ذلك من مشتقّات النّخلة. بالإضافة إلى التّقاليد والمعارف التي تُعنى بزراعة النّخيل والعناية بها وما يرتبط بها من مفاهيم ومفردات لغوية وأمثال ومأثورات شفوية، وأنشطة موزّعة حسب الرّوزنامة الفلاحية التّقليدية، وكذلك الممارسات والطقوس الموروثة التي تدور حولها. وبشكل عام، يشهد التّراث الثقافي اللاّمادي المتّصل بالنّخلة تقلّصا كبيرا، بسبب التّغيّرات السّوسيوثقافية التي تشقّ المجتمع وعزوف فئات واسعة من الشّباب عن الاهتمام به وعن كل ما هو تقليدي.

2.2 الصّيد بالشَّرْفِية بجزر قرقنة:

من المعلوم أنّ النّخلة هي أهمّ ما يميّز المشهد الطبيعي القرقني، بل هي "الشجرة الملكة" (Louis, André, 2007, p. 135) لجزر قرقنة، وعليها يعتمد ساكن الجزيرة في الكثير من نواحي حياته. وفي ذلك يقول أندري لويس "بالنسبة للقرقني تعتبر النّخلة صديق ثمين، ويحصل منها على الكثير والكثير من الأشياء"، وبعد أن يعدّد مكوّنات النّخلة التي يستعملها، يقول أن لا شيء يضيع منها (Fehri, Noômène, 2011, p. 184)، ويقول في موضع آخر "كل ما في النّخلة يُستعمَل" (Louis, André, op.cit., p. 135). وفي ذات المقال يقدّم أندري لويس جردا في مشتقّات النّخلة ومجالات استغلالها لدى سكّان جزر قرقنة، بدء بالتّمر (بما في ذلك النّوى) وانتهاء باللاّقْمي، مرورا بالعرجون والسّباطة (العذق) والجريدة – بما في ذلك جزءها المشوّك - والسّعف والكرنافة (ساق الجريدة) واللّيف والجذع (Louis, André, op. cit., pp. 136-148). ومن بين المصنوعات التي تعتمد على بعض مشتقّات النّخلة نذكر "الشّرفية"، وهي تقنية تقليدية تُستعمَل لصناعة مصائد للأسماك، من جريد وحُصُر وشباك، وذرَاِينْ وأوتاد من خشب الزيتون. ويستعمل في ذلك الجريد ونصال الجريد والخوص وأعذاق العراجين وسيقانها. وتختلف تسمية "الشّرفية" حسب الموقع البحري وعمق المياه والاتّجاه والمساحة التي تمتدّ عليها". وقد نجحت تونس في نيل موافقة اللّجنة الدولية الحكومية باليونسكو بتسجيل الصّيد بالشّرفية بجزر قرقنة على القائمة

التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية سنة 2020. ونظرا لأهمية هذه التّقنية في الحفاظ على البيئة البحرية، في مستوى الشّريط السّاحلي بالخصوص، والتّنوّع البيولوجي، قامت المؤسّسات الحكومية ذات الشّأن بعديد المبادرات لتعزيز بقاء "الشّرفية"، ومن بين ذلك القيام ببعض البرامج الهادفة إلى تثمين طرق الصّيد التّقليدية ودعم شراء الجريد لغرض صنع "الشّرفية" من طرف المندوبية الجهوية للتّنمية الفلاحية بصفاقس (UNESCO, 2020, pp. 8-9).

وبالرغم من الصّعوبات التي تواجه استمرار هذا العنصر، والتي يمسّ بعضها بشكل مباشر المعارف والمهارات المتّصلة باستغلال مكوّنات النّخلة في إنشاء "الشّرفية"، إلاّ أنّ الإجراءات الواردة في إطار برامج التّثمين وإجراءات الصّون لا توفّر القدرة على مواجهة التّحدّيات المطروحة بالمستوى الكافي، خاصة من جانب هياكل الدولة. ومن بين تلك التّحدّيات، نذكر الانعكاسات النّاجمة عن تزايد نشاط ملوحة التّربة وتسبّخها وارتفاع مستوى مياه البحر وشبه انعدام الأنشطة الفلاحية التّقليدية والاستغلال غير القانوني لمقاطع الرمال، وهي عوامل تؤثّر سلبا على غابات النّخيل وتتسبّب في تقلّص مساحاتها (Fehri (Noômène), 2011, pp. 170 – 172 et pp. 181-187). كذلك المشاكل البيئية المترتّبة عن التّلوّث النّاتج عن أنشطة الشّركات البترولية، وتزايد استعمال الأدوات المصنوعة من مادّة البلاستيك على غرار "الدّرَابِنْ" والأنابيب (بدل الدعائم الخشبية التي تشدّ الحصير) والشباك، وكذلك "الدْرَابِنْ" ذات الأطر معدنية. والتّداعيات النّاتجة عن التّغيّرات السّوسيوثقافية التي يشهدها المجتمع، والتي من شأنها أن تهدّد بقاء التّراث الذي وصلنا عبر الأجيال. هذا إلى جانب عدم تطبيق مقترحات حَمَلة العنصر التّراثي الهادفة إلى تعزيز صونه واستمراره، وضعف البرامج الهادفة لتكوين النّاشئة على حذق المعارف والمهارات ذات العلاقة بصنع لوازم "الشرفية". إذن كل ذلك، وغيره، ممّا لا يتّسع المقام لإحصائه، يعرّض المشهد الطبيعي القرقني والتّراث اللاّمادي المتّصل ب"الشّرفية" إلى التّقلّص والاندثار تدريجيا. وفي هذا الإطار لا بدّ من الإشارة إلى أنّ تدابير الصّون المقترحة ضمن ملف "الصّيد بالشّرفية بجزر قرقنة" المقدّم إلى اللّجنة الدولية الحكومية (UNESCO, 2020, pp. 10- 11)، ورغم أهميتها القصوى، إلاّ أنّها، في المجمل، لم تجد طريقها إلى التّنفيذ.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ التّراث المتعلّق بالصّيد ب"الشّرفية"، وبالنّخلة عموما، في جزر قرقنة، يشمل عديد الجوانب والحيثيات التي يمكن إدراجها ضمن أغلب المحاور التي يتجلّى من خلالها التّراث الثّقافي اللاّمادي كما ضبطتها اتفاقية اليونسكو لسنة 2003، وهو في حاجة ماسّة وعاجلة إلى التّوثيق والتّثمين حتى لا يدركه التّلاشي والضّياع.

2. محاولة لرسم الملامح العامّة لتحقيق صون التّراث اللاّمادي المتعلّق بالنّخلة

إزاء تواضع إجراءات الصّون المتعلّقة بالتّراث الثّقافي اللاّمادي المتمحور حول النّخلة في تونس، خاصّة من جانب المؤسّسات الرّسمية، رغم إدراجه على القائمة التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية، من خلال العنصرين المذكورين آنفا، ليس بوسعنا إلاّ أنّ نعيد ما قاله الباحث أحمد بهي الدين العسّاسي، حينما قال "على الصّعيد العربي، قمنا بتسجيل العديد من عناصر التّراث الثّقافي غير المادي، لكنّنا وقفنا إزاء التّباري في التّسجيل فحسب، ويبقى لنا أن نسأل أنفسنا وماذا بعد؟ إنّ تسجيل العناصر يجب أن يكون خطوة أولية نحو صون التّراث الثّقافي غير المادي وضمان استدامة عناصره والإفادة منها، وترسيخها لدى الأجيال التي لم تشهد أداءها أو تحسب أنها غير ضرورية في عالم يعتمد ثقافة تقنية حديثة. كذلك الوضع في الحسبان الارتقاء بحامليه، وتمكينهم من ممارسته وتعليمه ونقله إلى غيرهم، كما يجب حماية السياقات التقليدية التي تؤدّى فيها هذه العناصر" (العسّاسي (أحمد بهي الدين)، 2017، ص 85).

إذن يمكن القول أنّ تحقيق صون التّراث المرتبط بنخلة التّمر يستدعي حماية المنظومات الواحية وتوفير أسباب بقاءها وتوازنها، خاصّة وأنّها تتّسم بهشاشتها وخطورة ما تواجهه من تحدّيات. وذلك لأنّ التّهديدات التي تواجه بقاء النّخلة ككائن حي، من شأنها أن تؤثّر مباشرة على ما يدور حولها من تراث ثقافي. كما يتطلّب صون هذا التّراث قيام مصالح وزارة الثقافة، وخاصّة المعهد الوطني للتّراث ووكالة إحياء التّراث والتّنمية الثّقافية، بمعيّة مختلف المتدخّلين وعلى رأسهم مصالح وزارة الفلاحة والدّيوان الوطني للصّناعات التّقليدية ومعهد المناطق القاحلة ووكالة حماية الشّريط السّاحلي والوكالة الوطنية لحماية المحيط وغيرهم من المؤسّسات المعنية - نظرا للطبيعة الأفقية لهذا الجانب من التّراث- بمعية حَمَلَة التّراث والمهتمّين به من جمعيات ومنظّمات، بتنسيق الجهود وتشخيص أوضاع نخلة التّمر، في مختلف بيئاتها الطبيعية، ورصد ما يكتنفها من أبعاد ثقافية، أي منظومة التّمثّلات والرّموز والمعارف والمهارات وما تحمله الذّاكرة الجماعية حولها من مختلف فنون القول. ومن ثمّ وضع مخطط حماية لها مصحوب بمخطط صون (plan de sauvegarde) لما يتعلّق بها من جوانب تراثية.

ولعلّ أوّل خطوة يقوم عليها مخطّط الصّون هي القيام بأعمال توثيق منهجية وموحّدة وبمختلف الوسائط (كتابات ورسوم ومخططات وصور وفيديوهات) للجوانب القائمة في الواقع من معارف ومهارات وممارسات، وكذلك للجوانب الأخرى التي اختفت ولكنها مازالت محفوظة في صدور حملة الذاكرة. وفي هذا السّياق لا بدّ من التّأكيد على أنّ صون التّراث الثّقافي اللاّمادي يمرّ حتما عبر الاهتمام والعناية بحَمَلَتَه، أي حَمَلَة الذّاكرة والمعارف والمهارات والتّمثّلات، أو ما يسمّون بـ"الكنوز البشريّة الحيّة"، فهؤلاء هم من تقوم عليهم عملية نقل وإحياء هذا التراث. وكما هو معلوم فإنّ منظّمة اليونسكو ما فتئت تشجّع

الدول على إحداث منظومات وطنية "للكنوز البشرية الحيّة" منذ سنوات عديدة، وضبط الأطر القانونية والمؤسّساتية اللاّزمة لها، والتي تنظّم بالخصوص طريقة تسيير وإدارة وتمويل المنظومة، وطريقة اختيار "الكنز"، وحقوق والتزامات "الكنوز" والمتدرّبين على حدّ سواء.

وتقتضي منظومة الصّون كذلك وضع برامج تحسيسية وورشات ومناشط تُعنى بنقل العناصر التّراثية إلى الأجيال الجديدة وإحداث أرشيفات رقمية تتيح الإطّلاع عليها وتعلّمها والاستلهام منها وإخضاعها للبحث، وذلك علاوة على إدماجها في الخطط التّنموية. أيضا تقتضي تدابير الصّون، السّعي إلى تحيين أعمال الجرد بصفة دورية بمعيّة حَمَلَة العناصر التّراثية بغاية رصد مختلف التّحوّلات التي تطرأ على تلك العناصر. وفي هذا الصّدد من الضّروري التّذكير بقرارت اليونسكو المرتبطة باتّفاقية صون التّراث الثّقافي اللاّمادي، والمستندة على الفصل 29 من الاتّفاقية، أنّ الدّول الأعضاء مطالَبة بتقديم تقرير حول تفعيل الاتّفاقية كلّ ستّ سنوات، يتضمّن التّراتيب القانونية وغيرها من الإجراءات الخاصّة بتدابير الصّون داخل حدودها، ويُخصَّص في جزء منه للعناصر المسجّلة على القائمة التّمثيلية. وتبعا لذلك فإنّ تونس مطالبة بتقديم هذا التقرير يوم 15 ديسمبر 2022 إلى منظمة اليونسكو. وفي ذات السياق، لا بدّ من التذكير بأنّ تونس سبق وأنّ قدّمت تقريرا في هذا الغرض، مؤرّخ في 2016/11/30. ومن الملاحظ أنّ تدابير الصون، خاصة على المستويين القانوني والمؤسّساتي، لم تتقدّم منذ ذلك التاريخ، بالقدر المطلوب، إذ لم تتمّ مراجعة مجلّة حماية التّراث الأثري والتّاريخي والفنون التّقليدية (القانون عدد 35 مؤرّخ في 24 فيفري 1994) لكي تنسجم مع نصّ وروح اتفاقية اليونسكو لسنة 2003 ومع مقتضيات صون التّراث الثّقافي اللاّمادي. كما تمّ العدول عن برنامج وزارة الشّؤون الثّقافية المتعلّق بإنشاء مراكز جهوية للتّراث اللاّمادّي.

خاتمة:

خلاصة القول، تشمل المعارف والمهارات والممارسات المتّصلة بالنّخلة هذه النبتة في مختلف جوانبها، سواء في غراستها والعناية بها، بحسب التّوزيع المناطقي، صحراوي أو جبلي أو بحري. كما أنّ الكثير من المنتجات الحرفية والغذائية المشتقّة من النّخلة تمثّل مادّة استهلاكية واسعة الرّواج لدى عموم التّونسيين (المظلّة، المروحة، سجّادة الصلاة، المواد الغذائية التي تقوم على التّمر ...)، هذا إلى جانب ما تتيحه المعارف الحديثة مثل فنون التّصميم من فرص لإنتاج مواد فنيّة من مشتقات النّخلة. ولذلك فإنّ صون التّراث الثّقافي المتّصل بالنّخلة يقوم في مبدئه على حماية النخلة كنبتة عبر إطار قانوني ناجع، يشمل أماكن وجودها في مختلف المنظومات البيئية، وعبر مؤسّسات تتولى السّهر على حسن تطبيقه، هذا إلى جانب إحداث إطار قانوني ومؤسّسي يعنى بصون التّراث الثّقافي اللاّمادي عموما، ومنه، بطبيعة الحال، العناصر المرتبطة بالنّخلة. وممّا لا شكّ فيه أنّ تسجيل ملفّيْ "النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد

والممارسات" و"الصّيد بالشّرفية بجزر قرقنة" على القائمة التّمثيلية للتّراث الثّقافي اللاّمادي للإنسانية يعدّ مكسبا مهمّا، إلاّ أنّ ذلك يبقى دون جدوى، بل مجرّد دعاية محدودة الأثر، ما لم تتبعه خطّة عمل منهجية وبرنامج صون متكامل.

قائمة المراجع والمصادر:

اتّفاقية اليونسكو لصون التّراث الثّقافي اللاّمادي.

العسّاسي (أحمد بهي الدين)، 2017، "التّراث الثّقافي غير المادي في عالم متغيّر"، *مجلة مراود*، العدد 5، أكتوبر 2017.

الجزيراوي (محمد)، 2009، " صناعة السّعف في الجنوب التّونسي"، *مجلّة الثّقافة الشّعبية* (البحرين)، العدد 7، خريف 2009.

الجزيراوي (محمد)، 2018، " مهارات ومعارف النّجّار التّقليدي في صناعة الأبواب العتيقة بمنطقة نفزاوة"، *مجلة الثّقافة الشّعبية* (البحرين)، العدد 43.

خريّف (محي الدين)، 2010، "النّخلة في الجنوب التونسي"، *مجلّة الثّقافة الشّعبية* (البحرين)، العدد 9، ربيع 2010.

صديقي (محمد الناصر)، 2011، " عادات الخصب بالجريد في التقاليد والمعتقد: "احتفالات النيروز بنفطة"، *الواحات تراث وتنمية* (تقديم حفناوي عمايرية)، وحدة البحث: الجنوب الغربي، التاريخ والآثار والتراث والمجتمع، المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الانسانيات بقفصة، مطبعة قطف، قفصة.

منظمة الأمم المتّحدة للتّربية والعلم والثّقافة، *أسئلة وأجوبة حول التّراث الثّقافي غير المادي* (دون تاريخ): https://ich.unesco.org/doc/src/01855-AR.pdf

المعهد الوطني للتراث بتونس، الجرد الوطني للتّراث الثّقافي اللاّمادّي، *الصّيد بالشّرفية بجزر قرقنة (بطاقة الجرد رقم 031/7)*: http://www.inp.rnrt.tn/pat_immateriel/Peche_Kerkennah_ar.pdf

المعهد الوطني للتراث بتونس، الجرد الوطني للتّراث الثّقافي اللاّمادّي، *النّخلة: المعارف والمهارات والتّقاليد والممارسات (بطاقة الجرد رقم 033/6)*: http://www.inp.rnrt.tn/pat_immateriel/palmier_ar.pdf

Deutsche Gesellschaft Für Internationale Zusammenarbeit (GIZ) GmbH et Ministère de l'Environnement (Tunisie) (2012), *Les oasis de Tunisie, à protéger contre la dégradation et les effets du changement climatique*, Tunis: http://www.environnement.gov.tn/PICC/wp-content/uploads/Les-oasis-de-Tunisie-%C3%A0-prot%C3%A9ger-contre-le-changement-climatique.pdf

Deutsche Gesellschaft Für Internationale Zusammenarbeit (GIZ) GmbH et Ministère de l'Agriculture, des Ressources Hydrauliques et de la pêche (Tunisie) (2007), *Stratégie*

nationale d'adaptation de l'agriculture tunisienne et des écosystèmes aux changements climatiques, Tunis: http://www.environnement.gov.tn/PICC/wp-content/uploads/Strat%C3%A9gie-nationale-d%E2%80%99adaptation-de-l%E2%80%99agriculture.pdf

Fehri, Noômène (2011), « La palmeraie des îles Kerkennah (Tunisie), un paysage d'oasis maritime en dégradation : déterminisme naturel ou responsabilité anthropique ? », *Physio-Géo – géographie Physique et Environnement*, volume V.

Louis, André (2007), « Aux Kerkennah : le Palmier et les Hommes », *Revue IBLA*, n°200.

Ministère de l'environnement et de développement durable (Direction générale de l'environnement et de la qualité de la vie) (2015), *Stratégie de Développement Durable des Oasis en Tunisie*, Tunis: http://www.environnement.gov.tn/images/fichiers/projets_acheves/GDEO/3_1.pdf

Romdhane (Mohamed Salah), 1998, « La pêche artisanale en Tunisie. Evolution des techniques ancestrales », in : *Mélanges de l'Ecole française de Rome. Antiquité*, t. 110, n°1.

Société Consulting en Développement Communautaire et en Gestion d'Entreprises (CDCGE) et Ministère des Affaires Locales et de l'environnement (Tunisie) (2017), *Les oasis traditionnelles de Tunisie*: http://www.oasys.tn/sites/default/files/Atlas%20des%20oasis%20traditionnelles%20de%20Tunisie_1.pdf

UNESCO, 2019, *Dossier de candidature n°01509 pour inscription en 2019 sur la Liste représentative du patrimoine culturel immatériel de l'humanité : Les connaissances, savoir-faire, traditions et pratiques associés au palmier dattier*: https://ich.unesco.org/doc/src/42973-FR.doc

UNESCO, 2020, *Dossier de candidature n°01566 pour inscription en 2020 sur la Liste représentative du patrimoine culturel immatériel de l'humanité : La pêche à la charfiya aux îles Kerkennah,*:https://ich.unesco.org/doc/src/47189-FR.doc

UNESCO, 2016, *Rapport sur la mise en œuvre de la convention et sur l'état des éléments qui ont été inscrits sur la liste représentative du patrimoine culturel de l'humanité (Tunisie), :* https://ich.unesco.org/doc/download.php?versionID=43404